مركز دراسات الوحدة العربية

أوراق عربية

٣٧

سِيَرٌ وأعلام (١٥)

قسطنطين زريق

الداعية والمفكر القومي العربي

الدكتور عبد الغني عماد

• تُعْنَى سلسلة «**أوراق عربية**» بنشر مادة فكرية ميسّرة لقاعدة واسعة من القرّاء، في موضوعات وشؤون مختلفة (سياسية، اجتماعية، اقتصادية، لغوية، إعلامية...)

• تسعى سلسلة «**أوراق عربية**» إلى تنمية تقاليد القراءة لدى الشباب، وبالتالي ربط قرّائها بالقضايا والإشكاليات الكبرى التي تشغل النُّخَبَ والرأي العام، وتتصل بالمصير والمستقبل في وطننا العربي، والعالم من حولنا.

أوراق عربية ٣٧

في هذه الورقة تعريف بسيرة د. قسطنطين زريق، الداعية والمفكر القومي العربي، والمؤرّخ والأكاديمي، والتربوي، فقد كان له الإسهام الأساسي في بناء الأرضية الفكرية والأيديولوجية التي انطلقت منها كبرى الحركات القومية على امتداد الوطن العربي في تاريخه الحديث، وقد كان تأثيره بارزاً في نشأة حركة القوميين العرب تحديداً. وقد تميّز منهج د. زريق باعتماده مفهوماً للقومية علماني الطابع، وتقدمي المضمون. وإن أهمّ التحديات التي تواجه الحركة القومية العربية - برأيه - ضمان المساواة القانونية والواقعية لجميع المواطنين.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ - ١١٣
الحمراء - بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ - لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)

برقياً: «مرعربي» - بيروت

فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)

e-mail: info@caus.org.lb

Web site: http://www.caus.org.lb

الثمن: دولاران
أو ما يعادلهما

ISBN 978-9953-82-562-5

قسطنطين زريق

الداعية والمفكر القومي العربي

٣٧
أوراق عربية

مركز دراسات الوحدة العربية

سير وأعلام (١٥)

قسطنطين زريق

الداعية والمفكر القومي العربي

الدكتور عبد الغني عماد

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

عماد، عبد الغني

قسطنطين زريق: الداعية والمفكر القومي العربي/ عبد الغني عماد.

٣٢ ص. ـ (أوراق عربية؛ ٣٧. سِيَرٌ وأعلام؛ ١٥)

ISBN 978-9953-82-562-5

١. زريق، قسطنطين. ٢. القومية العربية. أ. العنوان.
ب. السلسلة.

907.202

العنوان بالإنكليزية

Constantine Zurayk:

An Arab Nationalist Thinker and Advocate

By 'Abed al-Ghani Emad

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (+٩٦١١)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت، فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (+٩٦١١)
e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمركز

الطبعة الأولى
بيروت، تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٢

المحتويات

مقدمة ٧

أولاً : سيرته ونشأته ٨

ثانياً : مؤلفاته ١١

ثالثاً : المفكر والمؤرخ المتميز ١٣

رابعاً : المفكر القومي والمنظّر الوحدوي الرائد ١٤

خامساً : الدين والقومية ١٧

سادساً : التراث القومي ١٩

سابعاً : النخبة القومية ٢١

ثامناً : التربية القومية ٢٢

تاسعاً : العقلانية ٢٥

عاشراً : الحرية هي الطريق إلى الوحدة ٢٧

حادي عشر : فلسطين ٢٨

ثاني عشر : العبور إلى الديمقراطية ٣١

مقدمة

لأسباب كثيرة يحتل قسطنطين زريق مكانة مرموقة بين المفكرين العرب المعاصرين، فهو من رواد الفكر القومي العربي، وأحد أبرز محرّكي هذا التيار في تاريخنا المعاصر، وهو منظّر ومفكّر قام بوضع وتطوير العديد من المفاهيم الاجتماعية والسياسية التي لاقت منذ منتصف القرن الماضي انتشاراً واسعاً، وساهمت بالتالي في رسم الملامح الفكرية للتيارات والشخصيات السياسية التي لعبت أدواراً فاعلة ومؤثرة في الوطن العربي. إن مكانته تعود إلى تتابع إنتاجه الفكري وتجدده، وإلى الانتشار الواسع الذي تمتع به الإنتاج خلال سنوات طويلة، حيث تلقفته أجيال متتابعة من الطلبة الجامعيين من مختلف الأقطار العربية، لعبت أدواراً مهمة في بلدانها، هذا فضلاً عن أسلوبه المتميز الذي مكّنه من تأسيس منهج فكري واضح، سمح لشرائح واسعة من المثقفين العرب بالتفاعل معه على نطاق واسع، وإن كانت الغايات الكبرى لم تتحقق بعد، لكنه رعاها في حالتي الذبول والتفتح، وسقاها من فكره وتجربته وجهده وعلمه، ما جعله من بين أكثر المفكرين العرب حضوراً وفعالية.

فقد قرأناه يعيش زمانه وهو النادب نفسه لمهمات تترجّح ما بين الوطني والقومي والإنساني، بين الحضاري والثقافي والتاريخي، يتناول موضوعاته بشغف، محلّلاً، برصانة، وبحضور فاعل، لأكثر من ستين سنة. لم يكن حضوره بالضرورة مادياً ومباشراً، بل كان بأفكاره ولسنوات وعقود يزرع في أرضنا العربية بذور المعرفة والحرية والعقلانية، والحق والعدل والنهضة والوحدة العربية، وهي بذور أينعت في أفراد ومؤسسات وأوضاع، سقاها من فكره وتجربته وجهده وعلمه، فقد قرأناه ملتزماً قضايا أمته، يتناول موضوعاته بشغف، راصداً بعقلانية والتزام، لم تحدّه حدود الأمكنة، ولم تأسره وقائع الأزمنة. كان يدخل مع كلٍّ منها بحالات من التفكّر والتبصّر تكشف عن إنسان

أوتي من سلطان المعرفة ما جعله يستشرف آفاق المستقبل، مع ذلك ما استبدّ به يوماً ادعاء أو غرور، بل ما زادته المعرفة إلا تواضعاً. والواقع إن الدارس لهذه الشخصية يحار فعلاً على أيّ بعد من أبعادها يركز؛ الدكتور زريق المفكر، والمؤرخ والأكاديمي، التربوي، المناضل والقومي العربي الوحدوي، أم يركّز على البعد الجامع للكل «زريق الإنسان»، وهذا ما سوف نحاوله في إطار ما تسمح به حدود هذه الدراسة.

أولاً: سيرته ونشأته

نشأته الدمشقية في حي القيمرية، حيث ولد لعائلة أرثوذكسية في ١٨ نيسان/ أبريل ١٩٠٩ تركت فيه أثراً هاماً. ففي هذا الحي الدمشقي، حيث الكاتدرائية والعديد من المدارس الأرثوذكسية، المجاور لأحياء إسلامية، نشأ زريق وسط أجواء من التسامح والتعاون بين أبناء الديانتين. أتمّ دراسته الثانوية في مدارس الطائفة، التي ضمّت العديد من التلامذة المسلمين، وعرفت بانفتاحها وبعدها عن التعصب ومستواها العلمي المتقدم، وخصوصاً في العلوم العربية. التحق بعدها بالجامعة الأميركية في بيروت، وبدأ دراسته بالرياضيات، إلا أنه سرعان ما تحول إلى التاريخ. وبعد نيله درجة البكالوريوس في الآداب بامتياز عام ١٩٢٨ سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث نال الماجستير من جامعة شيكاغو عام ١٩٢٩، والدكتوراه من جامعة برنستون عام ١٩٣٠، ولم يكن قد تجاوز الحادية والعشرين. وكان لهاتين الجامعتين برامج في الدراسات الشرقية لها مكانة مرموقة وشهرة خاصة في الأوساط الأكاديمية.

من جديد عاد إلى الجامعة الأميركية ليبدأ عطاءه العلمي فيها منذ العام ١٩٣٠ أستاذاً للتاريخ. وخلال هذه المسيرة شغل مناصب عدة تدرّج فيها من نائب لرئيس الجامعة إلى أن أصبح رئيساً لها (١٩٥٤ ـ ١٩٥٧)، هذا فضلاً عن رئاسته لجامعة دمشق (١٩٤٩ ـ ١٩٥٢)، لكن مكانته العلمية والجامعية تعدتهما إلى جامعات كبرى أخرى (نذكر منها كولومبيا وجورج تاون ويوتا) وإلى هيئات جامعية مثل الاتحاد الدولي للجامعات الذي أصبح رئيسه، ثم اختير رئيساً فخرياً له مدى الحياة. لم يبتعد عن الحقل الجامعي طيلة حياته إلا مرة واحدة ولمدة سنتين فقط، التحق خلالهما بالسلك الدبلوماسي السوري، فكان مستشاراً أولاً، ثم وزيراً مفوضاً ونائباً لرئيس الوفد إلى الأمم المتحدة (١٩٤٦ ـ ١٩٤٧). وهذا

الابتعاد المؤقت أملته ظروف عصيبة في تاريخ الأمة العربية حيث كان الاستقلال العربي في طور البناء والإنشاء، وكانت مشاركته ضرورة وطنية وقومية جعلته يكسر قراره بالاعتذار عن عدم قبوله المهام الرسمية.

رسالته كانت التربية والتدريس الجامعي. والحقل الذي شاء أن يزرع فيه بذور المعرفة والقيم هو قاعات الطلبة والدارسين. والأفكار التي كان يريد أن يثبتها وعياً قومياً جديداً لا تجد طريقاً لها إلا عقول الشباب وحيويتهم. لذلك ابتعد قسطنطين زريق عن المناصب الرسمية، رغم كل العروض والإغراءات من دول عديدة، والتصق بالجامعة أستاذاً وموجهاً ومشرفاً ومخططاً ومربياً وباحثاً ومفكراً. إلى جانب ذلك شارك وعلماء آخرين في إنشاء معهد يتولى توثيق المسألة الفلسطينية ودرسها وتقديم المعلومات والآراء حولها بأسلوب علمي وموضوعي، فكانت «مؤسسة الدراسات الفلسطينية»، وكعادته كان محركها الرئيسي حيث تولى رئاسة مجلس أمناء المؤسسة منذ إنشائها عام ١٩٦٣ حتى ١٩٨٤ حينما اختير رئيس شرف للمجلس.

الحيّز الأكبر من كتابات هذا المفكر كان بالعربية، وهي اللغة التي أحبها والتي كان دوماً يفضل الكتابة بها على الرغم من اتقانه لأكثر من لغة أجنبية، فقد أمضى دراسته الأكاديمية ومارس التعليم الجامعي في مؤسسات جامعية أجنبية، إلا أنه أراد أن يخاطب القارئ العربي من خلال المواضيع التي تتصل مباشرة بقضاياه الحاضرة والمتعلقة بمستقبله. وقد تميز أسلوبه بنكهة خاصة تجذب القارئ وتشعره بجمال اللغة ومتعة الأسلوب والبيان والمفردات الجديدة التي يدخلها إلى ميدان النص في حبكة متماسكة تتتابع فيها الأفكار وتنساق بتسلسل منطقي وعقلاني. حبكة المقال عند زريق أشبه بالبنيان المرصوص تترابط أجزاؤها منطقياً بصلابة ووضوح تام. هيكل المقال أشبه بمنظومة هندسية متكاملة، يبدأ دائماً بتقديم الموضوع وشرح أهميته. ثم يثبت الأطروحة الأساسية التي يرغب في معالجتها، ويستعرض عناصرها المختلفة ويحللها، وبعدها يعدد الاستنتاجات التي توصل إليها، وينهي الدراسة بتقديم ملخّص عنها. ويتكرر هذا النمط من المعالجة في جميع كتاباته تقريباً. يلجأ زريق في نصّه إلى الإعادة والتكرار، إلا أنه لا يلجأ إلى ذلك عبثاً بل إلى هدف تثبيت بعض المفاهيم والاستنتاجات الجديدة، وهو حين يعمد إلى ذلك يستخدم مفرداتٍ

وصيغاً جديدة في إعادة عرضه للأفكار، الأمر الذي يبقي القارئ مشدوداً إلى النص من دون ملل.

إن تحليل كتابات وأعمال د. زريق، فضلاً عن نقدها، عمل يتعدى إمكانيات وجهود باحث فرد، ذلك أن هذه النتاجات، عدا عن كونها نصوصاً متنوعة وغنية وتمثل مسيرة فكرية وتاريخية طويلة لمفكر فذّ لم يتوقف عن العطاء والإنتاج، هي أيضاً باتت نصوصاً منغرزة في قلب تيار كامل من تيارات الفكر القومي العربي، كان له السيادة في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية وما بعدها، ولا زالت بعض عناصره الفكرية تمارس سلطانها المعرفي حتى الآن، على الرغم مّما حدث من إضافات نوعية قدمها مفكرون عرب كبار[١].

كان للدكتور زريق الإسهام الأساسي في بناء الأرضية الفكرية والأيديولوجية التي انطلقت منها كبرى الحركات القومية على امتداد الوطن العربي في تاريخه الحديث، وقد كان تأثيره بارزاً في نشأة حركة القوميين العرب تحديداً. فقد بدأ وهو الأستاذ البارز في الجامعة الأميركية في بيروت، يبشّر بأفكاره بين طلابه منذ بداية الثلاثينيات، وكانت جمعية العروة الوثقى، وهي الجمعية الأدبية العلمية العاملة في الجامعة، الإطار العلني التي انطلقت فيها أفكاره، وفيها تحلق حوله الطلاب وذاعت شهرتها في الوطن العربي. وكان خارج الجامعة يلتقي سراً برموز وقادة ودعاة يوجّه ويدرّب على العمل القومي. في عهده وعلى يديه دخلت مبادئ «الكتاب الأحمر»، إلى الجامعة الأميركية أوائل الثلاثينيات، وهو الكتاب الذي مثّل في ذلك الحين دستور العمل القومي العربي، وهو الذي شارك في وضعه ونشره، واستجاب له الكثيرون، داخل الجامعة وفي رحاب الوطن العربي، على الرغم من الأحكام الانتدابية الفرنسية المتسلطة على لبنان وسورية في ذلك الحين، وملاحقتها الصارمة للحركات التحررية في الأراضي الخاضعة لها، كما يذكر د. حليم أبو عز الدين في شهادته تفاصيل الاجتماعات السرية التي كانت تتم بإشراف د. زريق، ويعرض أبرز ما جاء في ذلك الكتاب الذي

---

(١) صدرت الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق في: قسطنطين زريق، **الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق**، ٤ ج (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦).

يعتبر من المراجع التأسيسية في تاريخ الحركات القومية العربية[٢].

تسنّى لأجيال من الطلبة التعرف على نشوء وتطور الحركة القومية العربية، كما استطاعوا تنمية وعي خاص بالخطر الصهيوني الذي تجلى في مقاربات جديدة قدمها في مقالاته وكتبه فيما بعد. لقد دعا إلى نبذ الثقافة التقليدية وتبنّي العقلانية والعلم، وحثّ طلابه من أجل الدعوة والعمل لقيام دولة عربية موحدة، ووضع ثقتهم في «نخبة» مخلصة تقود التغيير اللازم في المجتمع العربي.

ثانياً: مؤلفاته

تتوزع مؤلفات قسطنطين زريق من حيث اهتماماته وأهدافه على ثلاث مجموعات، **الأولى** أكاديمية الطابع، يغلب عليها بحكم اختصاصه، الترجمة والتحقيق التاريخي لمخطوطات نادرة في التراث العربي والإسلامي، وقد صدرت بشكل متتالٍ، وضمت حوالى ستة كتب ومجلدات في مواضيع هامة، كان أبرزها تحقيق ونشر **تهذيب الأخلاق** لـ «أحمد بن مسكويه»، الذي ترجمه إلى الإنكليزية أيضاً. وقد شكلت هذه الأعمال على المستوى الأكاديمي نموذجاً متقدماً في تحقيق المخطوطات الكاشفة لبعض كنوز التراث العربي الضائعة[٣].

المجموعة **الثانية** من إنتاجه تألفت من أربعة كتب تجمع مقالات ومحاضرات مختارة للمؤلف كان قد نشرها في أماكن مختلفة، أول هذه الكتب في هذه المجموعة **الوعي القومي: نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي** الصادر عام ١٩٣٩، وهذا الكتاب كان وراء شهرة المؤلف في مجال الفكر القومي، حتى إن وزارة المعارف العراقية وضعت نسخة منه في كل مدرسة ومكتبة من مدارس العراق الرسمية ومكاتبه، كما قررت دار المعلمين العليا التابعة لها تدريسه في صفوفها. الكتاب الثاني كان صدر عام ١٩٥٧ بعنوان: **أي غد؟ دراسات لبعض بواعث نهضتنا المرجوة**. ويتضمن نصوصاً اجتماعية وثقافية

(٢) حليم أبو عز الدين، «الدكتور قسطنطين زريق والعمل القومي العربي،» في: **قسطنطين زريق ٦٥ عاماً من العطاء**، تحرير أنيس صايغ (بيروت: مكتبة بيسان، ١٩٩٦)، ص ٦٦ ـ ٦٩.

(٣) ومنها أيضاً كتاب **اليزيدية قديماً وحديثاً** الذي نُشِرَ عام ١٩٣٤، أما **تاريخ ابن الفرات** فقد حُقِّقَ ونُشِرَ وَفْقَ الأصول العلمية الحديثة الأجزاء: السابع والثامن والتاسع منه، بمشاركة في بعض منها مع د. نجلاء أبو عز الدين وذلك ما بين الأعوام ١٩٣٦ و١٩٤٣.

متعددة ذات صلة مباشرة بواقع المجتمع العربي وآفاته المستقبلية. الكتاب الثالث ظهر عام ١٩٦٣ تحت عنوان: **هذا العصر المتفجر: نظرات في واقعنا وواقع الإنسانية** وهو يقدم قراءات وتحليلات في واقع وتحديات العصر الحاضر إنسانياً وعربياً. وظهر آخر كتاب في هذه المجموعة تحت عنوان **أعظم من منتصرين** الذي احتوى على خطب مختارة كان قد ألقاها في مناسبات عدة بين (١٩٥٣ ـ ١٩٦٦).

المجموعة **الثالثة** من مؤلفاته هي التي تعالج موضوعاً واحداً بشكل متكامل، وفيها تظهر إمكانات زريق المعمقة والغنية لجهة العرض والتحليل. وعلى الرغم من أن بعض كتبه من المجموعة الثانية كان لها وقع أكبر عند نشرها، إلا أن هذا النوع من الكتب كان يتيح له المعالجة الشاملة لموضوع واحد من جميع جوانبه. أول إنتاج فكري لزريق في مضمار الكتب الموحدة كان تحت عنوان **معنى النكبة** صدر عام ١٩٤٨ وعالج فيه نكبة العرب في فلسطين عام ١٩٤٨، وقد لاقى هذا الكتاب رواجاً كبيراً وانتشاراً واسعاً لكونه قدّم أطروحات تميزت بابتعادها عن التبرير العاطفي الذي طغى على أدبيات تلك المرحلة، وقدم فيه مقاربات عقلانية جديدة لمواجهة تداعيات وتحديات النكبة. وقد صدرت للكتاب ترجمة بالإنكليزية عام ١٩٥٦. والكتاب الثاني في هذه المجموعة كان بعنوان: **نحن والتاريخ: مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ** وصدر عام ١٩٥٩، وهو دراسة في المفاهيم الأساسية لحقل الحضارة والتاريخ ومناهجه ومعالجة لبعض الأسئلة التي تثيرها علاقة العرب بماضيهم. ثالث كتب هذه المجموعة كان بعنوان: **في معركة الحضارة: دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها وفي الواقع الحضاري**، صدر عام ١٩٦٤، وفيه يتناول مفهوم الحضارة بمختلف معانيها وجوانبها وما يتفرع عنها من نظريات. وبالفعل يمكن اعتبار هذا الكتاب من الكتب الأولى باللغة العربية التي تتناول موضوع تفاعل الحضارات. أما رابع كتب هذه المجموعة فكتبه مباشرة بعد هزيمة العام ١٩٦٧ تحت عنوان **معنى النكبة مجدداً**. ورغم أن هذا العنوان كان أحد عناوين كتبه السابقة، إلا أن مضمونه كان مختلفاً في التحليل والقراءة النقدية والرؤية المستقبلية. آخر كتب هذه المجموعة صدر عام ١٩٧٧ تحت عنوان «**نحن والمستقبل**» وفيه يعرض تحديات المستقبل وآليات الانخراط والريادة فيه ويرسم التوجهات المطلوبة للمجتمع العربي.

ثالثاً: المفكر والمؤرخ المتميز

في كتاباته هذه، وخاصة نحن والتاريخ و أي غد ونحن والمستقبل تميز زريق بقدرة فائقة على «الاستشراف» حتى إنه لُقّبَ بأبي استشراف المستقبل كجزء من عملية التأريخ الوطني، السياسي والحضاري. فالتأريخ بالنسبة إليه لم تكن غايته إثبات الحوادث كما جرت، ووصف الأفكار والأفعال كما وقعت، بل كان جهداً متكاملاً لا ينفصل فيه التعليل التاريخي عن وصف وإثبات الحقائق. كان يصرّ على محاولة استكشاف علّة الأحداث الماضية، بل عللها. ويطرح السؤال بل الأسئلة عليها. لماذا وقعت حادثة ما؟ ولماذا حدث التاريخ كما حدث واتخذ الشكل الذي يتراءى لنا به؟ هذه القراءة المنهجية للأحداث والوقائع التي كان يصرّ على تقديمها وإنشائها بين طلابه، تغني النظر وتعمّق التحليل والتفسير. ولعل هذه الطريقة المنهجية مكّنته من تقديم محركات ذهنية هامة وجديدة في استشراف المستقبل، استفاد منها طلابه ومريدوه بشكل واسع.

كان يعتقد ويؤمن أن «الحقيقة التاريخية مطلب وخصم عنيد لكل عبث في القول أو وهم في الخيال وخفة في الحكم»[٤]، فالتوق الدائم إلى الحقيقة والموضوعية والأمانة في تسجيلها، والشجاعة في إعلانها هي من مميزات هذا المفكر والمؤرخ واهتماماته المتجلية في كل كتاب من كتبه. لم يكن يؤمن بتلك المدرسة في التأريخ التي تعتبر أن وظيفتها لا تتعدى إثبات الحقائق الماضية وربطها وتسجيلها. أما تعليل هذه الحقائق واستخراج العوامل الفاعلة فيها، أو استنباط القوانين التي تسيرها فهي ليست من مهمة أو وظيفة المؤرخ. كان زريق يرى في مدرسة التعليل التاريخي أمراً جائزاً إذا ما وضعت الضوابط المنهجية والنقدية والاستعدادات اللازمة للتمحيص العلمي الدقيق، هذا فضلاً عن توافر أجواء الحرية الفكرية[٥].

ويرفض زريق فكرة أن «كل حدث هو وليد عصره وبيئته فحسب وأن علاقته المكانية والزمانية الظرفية هذه تستنفد معناه كلّه»، ذلك أن مبدأ النقد

---

(٤) قسطنطين زريق، نحن والتاريخ: مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٥)، ص ٨٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٤٦.

والحكم في التأريخ يوجب على المؤرخ أن يأخذ بقياس مزدوج: زمني نسبي، يستوعب ظروف أهل العصر والبيئة صانعي الحدث والعوامل الفاعلة التي أثرت فيهم وحركتهم. على أنه لا يكفي أن نحكم عليهم أو لهم وفق مقاييس زمانهم فحسب، وإنما يجب اعتماد المقياس الحضاري التراكمي كذلك، الذي يبيّن مقدار مشاركتهم في إغناء التقليد التراكمي وأهمية إسهامهم في إنماء التراث الحضاري الإنساني(٦).

ينكر زريق القول بـ «الفائدة العلمية المباشرة المستندة إلى الاعتقاد بأن التاريخ دولاب يدور، وأن ما حدث في الماضي سيتكرر بالشكل نفسه في المستقبل. .»، لكنه يقرّ القول بالأخذ بالفائدة المستمدة من معرفة الاتجاهات في الماضي، ذلك «أن هذه المعرفة تمكّننا من إدراك أفضل لمشكلات الحاضر وللتطورات الممكنة في المستقبل»(٧).

رابعاً: المفكر القومي والمنظّر الوحدوي الرائد

كان صدور كتاب **الوعي القومي** علامة فارقة في مسيرة الفكرة العربية القومية الوحدوية التي عارضت الإقليمية والتجزئة، كما عارضت الطائفية والعائلية وغيرها من الارتباطات الصغرى التي لا تصل بالمرء إلى وعي واقعه القومي وحاجات هذا الواقع وخلفياته وأصوله وشروطه. جاء هذا الكتاب أواخر ثلاثينيات القرن الماضي والوطن العربي يشهد فوراناً شعبياً وسياسياً ضد الاستعمار والتجزئة من محيطه إلى خليجه، مترافقاً مع نظريات وأفكار قومية أخرى بدأت تظهر وتنتشر، يدعو إليها منظّرون ومفكّرون، وتجسّدها أحزاب وتنظيمات وحركات شتى أنكرت العروبة سياسياً أو حزبياً أو تاريخياً (منها الفرعونية في مصر، والقومية السورية في لبنان وفلسطين وسورية، والقومية اللبنانية ذات الطابع المسيحي في لبنان. .)، هذا فضلاً عن تأثيرات الفكر القومي الأوروبي والاشتراكي والطبقي الوافد الذي وضع العروبة في غير مكانها النهضوي والتنويري، شأنه في هذا شأن جانب من التيار الإسلامي

(٦) شفيق جحا، «الدكتور قسطنطين زريق المؤرخ،» في: **قسطنطين زريق ٦٥ عاماً من العطاء**، ص ٨٦.

(٧) زريق، **نحن والتاريخ: مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ**، ص ١٦٣.

الذي خلط ما بين العروبة والإسلام، فأجفل منها غير المسلمين، وناقض في نواح أخرى العروبة ونازلها فارتدّ عنها بعض المسلمين. في هذا المناخ كان الوعي القومي العربي الوحدوي والعفوي يجابه خصوماً ومعارك ومؤثرات لم يكن قد استعد لها. يمكن القول إن كتاب **الوعي القومي** شكّل مرحلة جديدة بكل معنى الكلمة، من التفكير القومي العربي، سواء في تحصين الوحدويين العرب وتعزيز إيمانهم القومي أو في توفير مادة دسمة وعقلانية في المبارزة الفكرية والثقافية مع أخصامه، وفي توفيره غذاءً روحياً أشبع جوع جيل كامل من الوحدويين العرب. وكان هذا الكتاب ملهماً لكتابات مماثلة أبرزها **دستور العرب القومي** للعلامة الشيخ عبد الله العلايلي، و**قضية العرب** لعلي ناصر الدين، كما ردّ عليه العديد من خصوم الفكرة العربية، وخاضوا معه سجالات ومنازلات فكرية.

ركّز زريق في معالجته للفكرة القومية على أطروحة أساسية تقول بحاجة جميع النهضات القومية إلى نهضة فكرية تسبقها أو تلازمها لتأدية وظيفتين: **الأولى** هي إمداد المجتمع بأساس نظري أو فلسفة قومية تحدد حركة التغيير فيه الغايات والأهداف والاتجاهات، وتعين لها الوسائل والمعالم والحدود. **والثانية** أن توفر لأفراد المجتمع عقيدة قومية تدفعهم إلى العمل في سبيل أهداف جماعية. كان يرى أن الوطن العربي يشهد حركة انبعاث واسعة يفتقر فيها إلى النهضة الموحدة والموجهة التي بإمكانها أن تقضي على حالات التشتت والضياع التي يعانيها، وتقع المسؤولية في ذلك على عاتق المفكرين العرب بالدرجة الأولى الذين بقوا بعيدين عن القيام بواجباتهم وفشلوا حتى في توضيح مفاهيم الفكر القومي الأساسية(٨).

يتساءل في البداية «على ماذا يقوم هذا الوعي القومي؟ من أيّ المصادر ينبض؟». لم يشغل زريق نفسه كثيراً بالمجادلات التي كانت مستعرة في ذلك الحين حول تبرير القومية وبرهنة تفوقها على غيرها من المدارس، بل ركّز على دوره كمفكر لشرح وتفسير الفكرة القومية العربية وتمكينها من النفوس «**فالأمة**

(٨) قسطنطين زريق، **الوعي القومي: نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي** (بيروت: دار المكشوف، ١٩٣٩)، ص ١٢ ـ ٢٢.

العربية لها شخصية خاصة تنفرد بها عمّا سواها من الأمم: شخصية مؤلفة من عناصر مختلفة، أهمها اللغة والثقافة والتاريخ المشترك، كما أن المسيرة التاريخية الخاصة بهذه الأمة ومحيطها الطبيعي، أمدّاها في الماضي كما في المستقبل برسالة». فما هي رسالة الأمة العربية؟ يجيب زريق: «كما أن العرب استطاعوا في العصور الغابرة أن يهضموا مدنيات اليونان والرومان والفرس والهند، ويمتصوها بعقولهم النشطة ونفوسهم الظمأى، ثم يخرجوها إلى العالم وحدة منسجمة غنية المادة، باهرة اللون، كذلك ستكون مهمة العرب في الأعصر الآتية: أن يتشرّبوا علم الغرب ويجمعوا إليه العناصر المختلفة التي تنشأ في الغرب، والشرق كرذ فعل له، ويؤلفوا بينها كلها في وحدة جديدة تكون عنوان الحياة المقبلة، ويفيض بها العرب على العالم كما فاضوا عليه بمدنيتهم الباهرة في القرون الماضية».

كان يؤمن أن إيقاظ هذا الوعي القومي إنما هو مهمة المجتمع وليس اختصاص «قادة السياسة وأرباب الحكم فحسب» فللمرأة دورها وللشباب دوره، ويؤكد «سواء أكانت هذه رسالتنا الحقيقية أم لا، فحسبنا أن نعتقد أن لنا رسالة ما، وأن نؤمن بها أنها أعدّت لنا وأننا أعددنا لها، وحسب قادة الفكر بيننا أن ينصرفوا لإيضاح هذه الرسالة وتبين هذه الغاية». وهو يلخّص معنى الوعي القومي في ثلاثة عناصر: «فهم صحيح لماضي الأمة الذي تحدّرت منه شخصيتها، وتقدير متزن لقوى الحاضر وعوامله، وإيمان متين بهدف الغد ورسالة المستقبل».

يختم بحوث الوعي القومي بـ «الجهاد الأكبر» وهو طبعاً جهاد النفس، وأوله النظام، نظام تفكير علمي متماسك، نظام في العمل الذي نقوم به. وثانيه هو الحرية، حرية من الجهل، من التعصب والتكالب على المادة والأنانية وسواها مما يضيّق على الإنسان مجال النمو والتقدم، وثالثها الشعور بالمسؤولية في مجالات الفكر والقول والعمل، مؤكداً أن «جهادنا القومي لا يبنى إلا على أساس الجهاد النفسي، وأنه لا يبلغ هدفه إلا إذا تفاعلت قوانا الداخلية فخلّفت فيها نفوساً منظمة، حرّة، شاعرة بمسؤوليتها...».

اتّصف منهج زريق في تناوله للفكرة القومية باعتباره إياها أولاً كعقيدة وكهوية واسطة لا غاية. وبدلاً من التركيز في تحليله على الأمة ككل وعلى

خضوع الفرد للأمة، كما فعل غيره من المفكرين القوميين، اعتمد هو الفرد وحده للتحليل الأساسي، واعتبر أن تحقيق مصالح هذا الفرد يجب أن تكون غاية القومية المباشرة والرئيسية. فالهوية العربية المطلوبة في الحاضر والمستقبل لن تبقى كذلك حقيقة أزلية وأبدية، فقد تتغير إذا دعت الظروف إلى ذلك، والتمسك بالعقيدة القومية أيضاً ليس أمراً حتمياً، فتعلّق المواطنين بها يعتمد على مقدار ما تحققه لهم من تقدم وحريات. فإذا فشلت في ذلك تفقد مبررها ويتخلّ الناس عنها ويفضلون عليها عقائد أخرى(٩). كذلك المشاعر القومية، هي ليست انعكاساً لحالة فطرية، لكنها وسيلة يجري تبنيها لتحقيق وظائف اجتماعية إيجابية كمعالجة الانقسامات الأفقية والعمودية الحادة الناجمة عن الطائفية والقبلية والإقطاعية والإقليمية التي يعانيها المجتمع العربي. هذا التصور الذي يقدمه زريق يقود إلى أبعد من الوعي القومي والاستقلال السياسي، يقود إلى تحرير الفرد وبناء الإنسان الحر الذي يحمي منجزات الاستقلال ويحافظ على مكتسبات الوعي القومي.

خامساً: الدين والقومية

«القومية العربية لا تعارض ديناً من الأديان ولا تنافيه، بل تقبل على الأديان جميعاً لترتشف من منابعها الفياضة كؤوس الصفاء والخلوص والقوة والخلود...»(١٠).

هكذا ينظر زريق إلى القومية، فيرى أنه لا بدّ لها أن تلاقي الدين، وأن تستمدّ منه القوة والحياة والرفعة والسمو. وهو يتوقف كمفكر مسيحي عربي ليكتب بعنوان «**بمناسبة مولد النبي العربي الكريم**» بحثاً ملفتاً وعميق الدلالة، ينشره ضمن مباحث كتابه **الوعي القومي** عام ١٩٣٩. سار على دربه أيضاً بعد ما يقرب من خمس سنوات مفكر مسيحي آخر هو أ. ميشيل عفلق، الذي كانت له محاضرة عالج فيها الموضوع نفسه، ونالت شهرة كبيرة أيضاً، بعد أن ألقيت في مدرّج جامعة دمشق عام ١٩٤٣ وأصبحت إحدى أدبيات البعث الشهيرة.

---

(٩) قسطنطين زريق، **نحن والمستقبل** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠)، ص ٢٢٠ و٢٢٦.

(١٠) زريق، **الوعي القومي: نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي**، ص ١٢٥ ـ ١٣٢.

ينظر زريق إلى محمد بن عبد الله (ﷺ) فيراه أولاً نبيّ الإسلام «. . . **ثم هو من ناحية ثانية موحّد العرب وجامع شملهم. . ، ومن ناحية ثالثة مثالاً لرجل العقيدة. .** » ويرى أن حاجتنا كبرى «**في جهادنا القومي إلى زعماء يقتبسون من شخصية النبيّ العربيّ قوّة العقيدة، وعزم الإيمان**». ويختم بحثه في هذا الموضوع بهذه الجملة: «**هذه هي الرسالة الروحية التي تحملها ذكرى مولد النبي العربي إلى حياتنا القومية الحاضرة. ومن أجلها وجب على القوميين العرب، على تباين نزعاتهم واختلاف مللهم ونحلهم، أن يكرّموا ذكرى محمد بن عبد الله: نبيّ الإسلام، وموحّد العرب، ورجل المبدأ والعقيدة**».

تميّز زريق في تنظيره القومي بأنه كان إيماني المنحى، علماني الطابع، تقدمي المضمون. فهو لم يضع القومية في مواجهة الأديان كما بيّنّا، لكنه أيضاً اعتبر العلمانية من الخصائص الجوهرية للحركات والدول القومية. وحذّر من أن حركة القومية العربية لن تتمكن من تأصيل جذورها إلا إذا اعتنقت مبدأ علمانية الدولة[١١]. فالقومية والعلمنة مرتبطان بعضهما ببعض بحيث إن وجود وقوة أي منهما يعتمد بشكل مباشر على وجود وقوة الآخر[١٢]. ونراه يؤكد في أكثر من مكان أن ضمان المساواة القانونية والواقعية لجميع المواطنين[١٣] هو من أهم التحديات التي تواجه القومية العربية. أما التقدمية فاتخذت عنده مظهرين: **الأول** زمني تمثل بالدعوة إلى توجيه التفكير إلى المستقبل عند النظر في القضايا القومية والتخلي عن العقلية الماضوية المكبّلة للفكر العربي[١٤]، **والثاني** تمثل في المناداة بالثورة على الاستغلال والرجعية.

لم يتجاهل زريق مسألة الأقليات الدينية في الوطن العربي، فنراه في معالجته لهذا الموضوع يرفض المقاربة التي تعتبر أن هناك مشكلة بين الإسلام والمسيحية، أو تحيله إلى صراع بين المسلمين والمسيحيين، بل نراه يرجع المشكلات التي تظهر في هذا المجال إلى الصراع بين تيارين: الرجعية والتحررية

---

(١١) زريق، **نحن والتاريخ: مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ**، ص ٢٠٣.

(١٢) زريق، المصدر نفسه.

(١٣) زريق، **نحن والمستقبل**، ص ٢٢٣.

(١٤) زريق، **الوعي القومي: نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي**، ص ١٠٨.

في كلا الجانبين، وهو الصراع الذي يتوقف عليه مستقبل العرب بأكملهم.

التنظير القومي عند زريق رغم الطابع العلماني والمضمون التقدمي الذي تميز به، بقي وثيق الصلة بالدين عموماً، وبالتراث الإسلامي العربي خصوصاً، فقد خصص لهذا الموضوع مباحث هامة في الهيكل الفكري الذي شيّده، والعقيدة التي رأى أن العرب يحتاجونها لتوجيه جهودهم نحو إعادة بناء مجتمعهم؛ أما محتوى هذه العقيدة، فيحدده التراث والتربية القوميان.

سادساً: التراث القومي

ينظر زريق إلى التراث القومي باعتباره الأساس الذي تقوم عليه الثقافة الحالية، وتمتد أهميته إلى المستقبل لأنه حقل للتعلم والاختيار يستعان به لإيفاء الحاجات المستقبلية. ولأن للتراث هذه المكانة الخاصة، خلص زريق إلى القول بأن: «**كل من لا ماضي له، لا حاضر له ولا مستقبل**».

وهو إذ يشيد بجهود بعض الغربيين في حفظ تراثنا، يستدرك ويقول إن ذلك ليس انتقاصاً للجهود التي تبذل عربياً في هذا السبيل، بل استنهاضاً للهمم وشحذاً للعزائم.

هذا عن حفظ التراث. فماذا عن إحيائه؟ هنا يمتدح زريق كتاب على هامش السيرة لطه حسين، لكنه يطالب بالمزيد من الجهود لنشر المصادر بنصوصها الأصلية وشكلها التام. ويقدم عدة مقترحات لكيفية الاستفادة من التراث في تلبية حاجات المجتمع العربي، منها إيجاد ثقافة قومية مستمدة من التراث تبرز خصائص الأمة العربية وتخلق بين أبنائها وحدة عقلية وروحية تدعم وحدتها السياسية والاجتماعية، ومنها استلهام التراث لتطوير ثقافة تاريخية تنمي شعور الأمة بأصالتها لأن في ذلك ما يعطيها ثقة بالنفس ومناعة في مواجهة الأحداث، ومنها العودة إلى التراث لاكتساب إدراك أفضل للذات القومية والفردية، لأنه بمعرفة الذات يمكن اكتشاف الأسئلة والمشاكل الجوهرية والمهمة التي تعترض الأمة والمواطن[١٥]. ولأن معايير التقييم الموجودة مشوّشة نتيجة

---

(١٥) انظر: المصدر نفسه، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ و١٥٥، وزريق، نحن والتاريخ: مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ، ص ١٦٥، ١٦٧ و١٦٩.

لظروف التغيير السريع الذي يرافق حالة النهضة، الأمر الذي يجعل من الصعب الاحتكام إليها، يرى زريق ضرورة استخلاص معاني التراث الإيجابية واستعمالها مقياساً في الحكم على القرارات القومية وحافزاً على الأعمال الإبداعية.

يتحدث زريق عن وجود علاقة تربط بين المستوى الحضاري للمجتمع وموقفه العام من تراثه؛ ففي حالات الانحلال، يأخذ المجتمع من تراثه الأشكال والتقاليد بدون المضمون، ويصبح التاريخ عندئذ مرضاً عقلياً يزيد المجتمع ضعفاً، لأن استعماله ينحصر فقط في المفاخرة والاستعلاء. وعندما يصطدم المجتمع بحضارة أكثر تطوراً، يبدأ بالاستفاقة إلى تراثه. لهذا اعتبر زريق التاريخ عبئاً وحافزاً في الوقت ذاته، ودعا إلى ضرورة قيام الأمة بالحكم على تاريخها لكي تحسن فهمه واستخدامه. والحكم في التاريخ لاكتشاف قيم التراث يكون بواسطة «العقل» المتحرر المنتظم.

ويستعين زريق بهذا التفسير ليصنف المواقف من التراث. فالفئة **الأولى** التي تتخذ موقف الرفض المطلق لحضارة الغير يؤدي بها الأمر إلى القبول المطلق للتراث وتتصف هذه المجموعة بالتعصّب أو التشدد. أما الفئة **الثانية** فتذهب إلى القبول بكل ما يأتي من الخارج وترفض التراث بالمطلق، اعتقاداً منها أن ذلك أقصر الطرق للتحديث والتطور، وفشل هذه الفئة محتم، لأن التراث سرعان ما يعود ليفرض نفسه بأساليب وأشكال مختلفة. أما الفئة **الثالثة** فتضم مجموعة كبيرة من المواقف المتباينة لكنها متفقة على مبدأ الاقتباس وضرورة التفاعل بين القديم والجديد. ضمن هذه الفئة مجموعة تقبل ببعض عناصر الحضارة المتفوقة، لكنها ترفض قيم هذه الحضارة، وهدفها الوصول إلى مصادر القوة والدفاع في الوقت نفسه عن التراث القومي، ومجموعة تريد اكتساب المبادئ والقيم المسؤولة عن نشوء الحضارة المتفوقة بالإضافة إلى عناصرها كلها، لكنها تريد أن يتم هذا الاقتباس بتدرج، رغم أن قسماً من هذه المجموعة لا يؤمن بالتدرج ويريد إحداث التغيير الثوري السريع للخلاص من التخلف في أقرب وقت[١٦].

بين هذه التيارات يحذّر زريق بشدّة من اتجاهين: **الأول** يتمثل بانجذاب

(١٦) انظر: قسطنطين زريق، في معركة الحضارة: دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها وفي الواقع الحضاري، ط ٣ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٧)، ص ٢٣٨ ـ ٢٤٥.

دعاته إلى الماضي بشدة تنسيهم اهتمامات الحاضر، الأمر الذي يدفعهم إلى إضفاء هالة من القداسة عليه تجعلهم غير راغبين في تخطّيه. وأصحاب هذا الاتجاه عنده، لا يعون أن كل من يحاول مقارعة الحاضر بالماضي سيكون دوماً من الخاسرين. والثاني يتمثل بالدعاة إلى نقض التراث، وفي ذلك قضاء على عناصره الجيدة والسيئة معاً. فالدعوة إلى التجرد والانفصال عن الماضي غير ممكنة واقعياً وغير مستحسنة. ويطلق زريق على هذين الاتجاهين تسمية الرجعية المتخلفة والمستقبلية الجامحة، ويعتبر كليهما خطراً على التراث.

يطلق زريق الحرية للعقل للحكم في التاريخ بهدف اكتشاف قيم التراث التي هي أهل للإحياء. العقل المتحرر المنتظم الذي يحتاج العرب إلى اقتباسه من الحضارة الحديثة، ذلك أن استخلاص الأعمال الإبداعية للسلف والتمثل بها، يؤدي إلى أن يزداد المجتمع أصالة وتتعزز فيه العقلية المستقبلية[١٧].

سابعاً: النخبة القومية

في تطلع زريق المفكر إلى المستقبل وجد أنه لا بد من واسطة حركية غير تقليدية تقود عملية النهضة، فالمثلث الذي أقامه على العقيدة والتراث والتربية غير قادر بحد ذاته على التحرك ونقل المجتمع من وضعه الراهن إلى حالته المرجوة لأنه يتكوّن في الأساس من عوامل استاتيكية غير متحركة، وهو يحتاج لكي يصبح حالة فعّالة وديناميكية، إلى قوّة من خارجه تعمل على تنشيطه وعلى توجيهه واستغلال الطاقات الكامنة فيه. هذه الفكرة التي تضفي على تنظير زريق بعده الديناميكي والاستشرافي هي فكرة «النخبة» التي نادى بها بقوة وفي أغلب كتاباته تقريباً. والحقيقة أنه بدون هذه الإضافة الفكرية الهامة كان الهيكل النظري الذي طرحه زريق سيفقد بالضرورة كل صفة عملية أو واقعية ويتحول إلى تنظير طوباوي غير قابل للتطبيق. وهكذا أصبح المثلث الذي أقام هيكله الفكري مشحوناً بمحرك «النخبة» التي أدخلها كمفهوم يساوي المفاهيم الأخرى، كالقيادة والطليعة والخبرة والرسل والصحابة وما إليه، فهذه المفاهيم كلها تشير إلى أقلية متميزة هي المسؤولة بقدراتها الإبداعية عن قيام الحضارات.

---

(١٧) زريق: نحن والمستقبل، ص ٢١٢ ـ ٢١٤، ومعنى النكبة، ط ٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤)، ص ٤٩.

بل نراه يذهب أبعد من ذلك، فيقول إن قيمة الحضارات وأحوال المجتمعات تعتمد على نوعية النخبة وأهليتها من جهة، وترتبط بحال النخبة من جهة أخرى[١٨]. فالنخبة تجسّد أقصى درجات الوعي في مجتمعها، وهي المؤهلة للإبداع لأنها لا تحجم عن تخطي ما هو قائم وارتياد المجهول، وهي الطاقة التي تمد المجتمع بالحيوية والتجرد، وهي أخيراً مصدر التقدم والرقي.

نقطة الانطلاق في عملية التحول الاجتماعي تكمن عنده في توافر هذه النخبة، فبدونها يفقد المجتمع «المحرك التاريخي» الذي لديه القدرة على التغيير والإصلاح. أما نجاح النخبة في تحقيق الآمال المعقودة فيتوقف على شرطين، الأول اعتناقها وإيمانها بأهداف أمّتها؛ الثاني درجة انتظامها في أحزاب عقائدية وقدرتها على إمداد الأمة من ضمن صفوفها بالزعامة التي تحتاج إليها[١٩].

النخبة أو القيادة المختارة إذن «هي الشرط الأول لبناء الأمم وإنشاء الحضارة»[٢٠].

ثامناً: التربية القومية

عرّف قسطنطين زريق التربية القومية على أنها تهذيب مكتسب ينمّي في غالبية الشعب مشاعر الانتماء إلى الأمة المسؤولة بدورها عن قيام المواطن بواجباته تجاه أمته. والتربية القومية بالنسبة إلى الأمم تؤدي الوظائف ذاتها التي تقوم التربية المدرسية بأدائها بالنسبة إلى الأفراد، فهي تعدّها لأن تحيا حياة قومية صحيحة بتخفيفها من حدّة النزاعات التي يتأجج بها المجتمع من الداخل، وهي توحد بين الاتجاهات السلوكية والفكرية المتباينة لأنها تمدّ المجتمع بهوية وغايات محددة. وتعمل التربية القومية أخيراً على تأهيل المجتمع للمساهمة في الحضارة الإنسانية بإطلاق طاقاته وتوجيهه لتحقيق المثل العليا. ولكي تكتسب التربية صفتها القومية يشترط زريق أن تكون مستمدة من فلسفة قومية من جهة، ومن

---

(١٨) قسطنطين زريق، في معركة الحضارة: دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها في الواقع الحضاري (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٧)، ص ٢٠٣، ٢٢٣ و٣٤٦.

(١٩) زريق، معنى النكبة، ص ٥١ ـ ٥٣.

(٢٠) قسطنطين زريق، أي غد؟: دراسات لبعض بواعث نهضتنا المرجوة (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٧)، ص ١٠٦.

الحياة الواقعية من جهة أخرى. فإذا توفر لها ذلك حازت الاستقرار والاستمرارية، وجاءت موافقة لمحيطها وظروفه. عالج زريق في كتاباته دور الوسائل المستعملة في بث التربية القومية، ومنها منظمات التعليم ووسائل الإعلام والأحزاب السياسية والأسرة، ونبّه في سياق معالجته لهذه الأساليب إلى أهمية إنشاء الصحف والأحزاب السياسية والعقائدية[٢١].

أهمية التربية عنده كانت كبيرة، خاصة منذ أن شاع التعليم في العلم الحديث، وسقط احتكاره من قبل أقلية محافظة متحالفة مع السلطة، فالتربية أضمن الوسائل لإصلاح المجتمع العربي والسير به في طريق التحضر[٢٢]، وبواسطتها يحفظ التراث وينتقل من جيل إلى جيل، وهي فضلاً عن ذلك المسؤولة عن تكوين النخبة القيادية المطلوبة لتوجيه المجتمع. وهو بهذه الأفكار يعبّر بصياغة منظمة عن تلك القناعة التي آمن بها معظم الإصلاحيين العرب والتي تمثلت على أفضل وجه في تعاليم مدرسة محمد عبده الفكرية.

في تحليله لأزمة التربية العربية يشير إلى إشكاليتين: **الأولى** خاصة بالمتعلمين العرب، والثانية تتعلق بالنظام التربوي للوطن العربي. عن الأولى يقول إن سببها عدم فهم هؤلاء بشكل صحيح لحقيقة العلم والثقافة وانشغالهم بالمعرفة الجزئية والسطحية[٢٣]، وعن الثانية يقول إن أساسها يعود إلى تخلّف هذا النظام في تلبية الحاجات الحالية والمتوقعة للمجتمع العربي. لذلك تراه يعلن فشل النظام التربوي فشلاً كلياً في توضيح المسائل والمخاطر القومية للجيل الجديد من جهة، وفشله في التوفيق بين قيم التراث والحضارة الحديثة من جهة أخرى، فضلاً عن بلورة العقيدة القومية وتخريج نخب قيادية جديدة. وهو يعتبر أن المسؤولية في ذلك تقع على السياسات المتبعة، كسيطرة الدولة على جهاز التعليم، وطغيان المركزية، والتقلبات المستمرة في سياسة التعليم، وعدم تشجيع روح الابتكار، والاعتماد على التلقين، وعدم الاهتمام بتطوير الناحية

---

(٢١) زريق، الوعي القومي: نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي، ص ٧٥ - ٩٣.

(٢٢) زريق، نحن والمستقبل، ص ٢١٥، ٣٢١ و٣٩٥.

(٢٣) زريق، الوعي القومي: نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي، ص ١٩٤ - ١٩٥.

الخلقية في شخصية الطالب، وتجاهل أهم عنصرين في العملية التربوية: الطالب والأستاذ[٢٤].

لذلك نراه يرفع الصوت محذراً من أن استمرار نظام التربية العربية على ما هو عليه لن يؤدي فقط إلى تفاقم المشاكل العربية، ولكن سيجعل من التربية عائقاً للتقدم. ويقترح لتخطّي هذا الواقع مجموعة من الإجراءات الإصلاحية تتناول المفاهيم التربوية من جهة، والنظم والوسائل من جهة أخرى؛ ففي مستوى المفاهيم دعا إلى التركيز على تطوير الشخصية بدلاً من التلقين، واعتماد مبدأ التربية الشاملة بدلاً من التربية المحدودة والمجزأة، وإحلال البرامج التي تشجّع على الإنتاج والتنمية مكان البرامج التي تنشر قيم الاستهلاك والانتفاعية. وعلى مستوى النظم والوسائل حدد مجالات الإصلاح بإدخال الوسائل التكنولوجية في العملية التربوية، وتنوير الإدارة التربوية، وخلق وتطوير المؤسسات التربوية كالمجالس المشتركة ومراكز البحوث والتخطيط، وتنسيق الجهود العربية في المجال التربوي على أسس قومية. أما إجراءات المدى القصير والعاجلة فحددها بضرورة مقاومة تسييس التربية واستخدامها للأغراض التجارية، وتقليص مجالات التسيب والهدر الموجودة في النظام التربوي، وتحسين أوضاع المعلمين، وربط البرامج التربوية بعملية التنمية، وإمداد الجهاز التربوي بما يحتاجه من إمكانيات لأغراض التنمية والتطوير والتحديث[٢٥].

في الواقع عالج زريق مواضيع التربية والتعليم بعمق وتميّز، لأنه رأى فيها الدور الحاسم في الحياة القومية، الأمر الذي يضع كتاباته في هذا المجال في المرتبة التي تحتلها مؤلفات ساطع الحصري الذي كان شديد التركيز أيضاً على هذا المحور. والحق أنه ألحّ على ضرورة إدخال وتعميم مفاهيم التربية الحديثة إلى الفكر العربي، بل إنه وضع بعض هذه المفاهيم موضع التطبيق عندما احتل مناصب أتاحت له ذلك في المؤسسات التربوية. وهو لم يتميز بنقده للأنظمة التربوية العربية السائدة فقط بل قدّم المقترحات الملائمة لتطويرها وتحديثها.

وإلى جانب موضوع التربية والتعليم تناولت كتابات زريق مفهوم الثقافة

---

(٢٤) زريق، أي غد؟: دراسات لبعض بواعث نهضتنا المرجوة، ص ١٠٢ ـ ١٢٠.

(٢٥) زريق، نحن والمستقبل، ص ٢٧٢ ـ ٤٠٠.

على مستوى «الفرد» و«الوطن». وهو يعرّف الثقافة «الفردية» على أنها معرفة مكتسبة للفكرة الأساسية التي تقوم عليها المعارف الإنسانية المختلفة مع تخصص وتعمق في أحد نواحي المعرفة، على أن يدعم ذلك صفات عقلية وروحية كالرغبة الدائمة في معرفة الحقيقة، والشك في ظواهر الأمور، والجهد والمعاناة في البحث، والتواضع وطلب الثقافة لنفسها، وليس لغاية مادية[٢٦]. وعلى الرغم من أنه لم يتوسع في الإعلان عن مفهومه للثقافة لماهية الثقافة العربية، إلا أنه قام بتوضيح أفكاره حول الصفات المطلوب توافرها في ثقافة المجتمع العربي المنشود. هذه الثقافة المستقبلية تتصف برأيه بأساس شعبي واسع، وبضرورة تجاوبها مع حاجات مجتمعها، وإيمانها بالعقل وأحكامه، وتأصّلها بالعناصر الإيجابية من تراثها، وتفتّحها على الحضارة الإنسانية ومشاركتها فيها.

تاسعاً: العقلانية

«الأمة التي تهزأ بالعقل وتهمله يحقّ عليها لا عليه الهزء والإهمال والخسران»[٢٧] هذه الجملة لزريق تعبّر بعمق عن رؤيته لأزمة العقل العربي التي يرى أن مسبّبها تقصير الأمة في الماضي في تطوير هذا العقل، الأمر الذي أدى إلى توقفه عن الإنتاج وتجمدّه لمئات السنين. ونجم عن ذلك توقف سير المدنية في الديار العربية. في توصيفه للعقل العربي يراه خاضعاً للوهم وللهوى، عاجزاً عن مقارعة خصومه الخارجيين ومجابهة ما يواجهه داخلياً من تحديات وتهديد. إنه باختصار يحمّل الأمة العربية نفسها مسؤولية عهود الانحطاط التي حلّت بسبب اضطهادها للعقول الحيّة. فالحضارات عنده «**تنتحر ولا تُقتل**».

ضعف العقلانية في الحياة العربية أدى إلى غياب الروح العلمية وطغيان الاهتمامات الأدبية على الحياة الفكرية. كان العلم بالنسبة إليه شرطاً أساسياً لوجود الحرية وتوفير الكرامة وتحقيق التقدم والقيام بإبداعات حضارية والحصول على القوة، فطريق العلم هو طريق المستقبل، ومنه

---

(٢٦) زريق، **الوعي القومي: نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي**، ص ١٨٥ - ١٩٤.

(٢٧) قسطنطين زريق، **هذا العصر المتفجر: نظرات في واقعنا وواقع الإنسانية** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٣)، ص ٧١.

يمكن قياس قدرة المجتمع العربي الحالي على البقاء بل واستحقاقه للبقاء.

كان يعتقد أن الإيمان يحرّك النفس ويحفّز العقل، وأن من أهم عناصره «**الإيمان بأن أقوى عدّة لنا في بناء مجتمعنا الحاضر والمستقبل، في عصر تكاد الحياة كلها فيه تكون قائمة على العلم، إنما هو العلم ذاته**». والعلم يقوم على البحث العلمي. ويقارن بين أوضاع البحث العلمي في إسرائيل وأوضاعه في بلادنا، ويشير إلى الفرق الشاسع والنقص الفاضح في إعداد الباحثين المنتجين، أو المؤسسات والمراكز الموقوفة على الشؤون البحثية والاستكشافية وموارد هذه المؤسسات ومستوياتها أو النتائج العلمية المبتكرة. ويشعر بالقلق البالغ لأن «**فريقاً كبيراً من الباحثين المؤهلين من أبنائنا الذين أنفقنا المبالغ الطائلة وبذلنا الجهود المضنية في سبيل تأهيلهم يهجروننا . . . بينما إسرائيل تجمع من أقاصي الأرض العلماء الباحثين اليهود لتفيد من مواهبهم**».

هذه المواقف الحاسمة تجاه مسائل التربية والعلم والعقلانية أعطت لفكر زريق نكهة خاصة في مسيرة الفكر العربي الحديث، تميزت بنقدها الجريء للواقع العربي، وتنبيهها المستمر لخطورة فقدان الروح العلمية والعقلانية على مستقبل الأمة.

خالف الكثرة من الكتّاب المعاصرين الذين أرجعوا الأوضاع العربية المتردية إلى عوامل خارجية وإلى أطماع القوى الاستعمارية ومكائدها فحسب، معلناً إيمانه العميق بأن الشعوب مسؤولة إلى حد بعيد عن تقرير مصيرها[٢٨]. واتخذ موقفاً مغايراً للعقائد التي تعطي الأوضاع المادية أهمية كبرى في تفسير الأحداث الاجتماعية، فالفضيلة والفساد بالنسبة إليه هما في البشر أكثر منهما في الأنظمة، والتقدم في المجتمعات وحضاراتها تقرره إرادة العنصر البشري لا الإمكانات المادية ولا العوامل الطبيعية والبيئية[٢٩]. ونراه يتميز أيضاً من العديد من معاصريه الذين سكتوا عن أو اعتنقوا مذاهب وتفسيرات دينية جبرية تحدّ من

(٢٨) زريق، أي غد؟: دراسات لبعض بواعث نهضتنا المرجوة، ص ٢٩.

(٢٩) انظر: زريق: هذا العصر المتفجر: نظرات في واقعنا وواقع الإنسانية، ص ١٤؛ في معركة الحضارة: دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها في الواقع الحضاري، ص ٢٠٢، ونحن والمستقبل، ص ٣٨٠.

حرية الإنسان وإرادته، وتعيد الأحداث وأسبابها إلى قوى غيبية ميتافيزيقية، لذلك يشدّد على أن للإنسان القدرة على اكتشاف الحقيقة وإدراكها وتحقيق سعادته في هذا العالم[٣٠]. وتختزن فكرته القائلة بأن الإبداع الحضاري خاصة فردية، وأن في صلاح الفرد صلاح المجتمع وخيره، مجموعة من المواصفات والقيم المثلى المطلوبة للمواطن، تلك التي ألحّ عليها وجعلها شرطاً ضرورياً لتحديث المجتمع العربي. كما عقد الصلة بين إحداث النهضة العربية وتحرير الإنسان العربي، وبالتالي فإن نجاح حركة النهضة مرهون بمقدار ما تحطمه من الأغلال التي تكبل العقل.

وإقامة المجتمع العقلاني هو هدف معركة الحضارة العربية، لأن العقلانية عنده هي الحاجة التي تتضمن جميع الحاجات الأخرى. لذلك نراه يختم دراسته في معنى الحضارة بهذه العبارة: «**ولو شئنا أن نلخص هذه الحاجات.. في حاجة واحدة، لقلنا إنها «العقلانية». فلا ندحة لهذه الشعوب (أي الشعوب العربية) إذا أرادت النجاة والفوز في هذه المعركة... عن أن «تتعقلن». فبالعقلانية تدرك أن مشكلتها الأولى هي التخلف الحضاري، وبها تقدم على محاسبة ذاتها، وتحنّ إلى التحضّر، وتؤمن بالحقيقة وبالعقل، وتتطلع إلى المستقبل، وتتفتح للخير من حيثما أتى، وتولّد قدراتها الإنتاجية، وتحقق إمكاناتها البشرية، وتضبط ثوريتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية**»[٣١].

عاشراً: الحرية هي الطريق إلى الوحدة

في إحدى دراساته في ثمانينيات القرن الماضي[٣٢]، يقدّم د. زريق تصوّره عن العقبات التي حالت دون قيام الوحدة العربية، ويرى أنها تتمحور حول العصبيات القبلية والطائفية والقطرية وأمثالها من النوازع المناوئة للوحدة... ومنها الجهل والعجز والبؤس وسواها من مظاهر التخلف

(٣٠) زريق، أي غد؟: دراسات لبعض بواعث نهضتنا المرجوة، ص ١٣٢.

(٣١) زريق، في معركة الحضارة: دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها في الواقع الحضاري، ص ٤١٠ـ ٤١١.

(٣٢) نُشِرَت في: «حلول عملية للعقبات التي تعترض الوحدة العربية،» قضايا عربية (بيروت)، العدد ٧ (تموز/يوليو ١٩٨٠).

الاجتماعي، ومنها أيضاً ضعف القيادات وتناحرها وسعيها إلى أغراضها الخاصة. ويجمع كل تلك الأسباب تحت عنوان «**التخلّف الاجتماعي**» الذي هو السبب الرئيسي لكل تلك الآفات، «**إنه تخلّف المجتمع العربي عن الطور الذي يؤهله لأن يكون مجتمعاً قومياً ولأن يحقق وحدته**».

إذن ما هو الحل؟ وما هو الطريق؟ هو بتقديره ليس مرتبطاً بحلول آنية قد تفيد وتكون مثار اهتمام ومتابعة، القضية بتقديره مرتبطة بانتقال المجتمع العربي انتقالاً نوعياً من حال إلى حال، ومن نظام إلى نظام حياة قادر على الصمود وعلى مجاراة التطورات الحضارية والإسهام فيها. فإقامة الوحدة العربية عنده «**عمل إبداعي ولا يقوى عليه إلاّ مجتمع خليق بالإبداع**». والانتقال إلى هذا المجتمع الإبداعي لا يتم إلا ببناء «**القدرة الذاتية**» التي تعني عنده القدرة على الصمود في وجه الأخطار الخارجية، القدرة على السيطرة على الطبيعة، القدرة على التنظيم في مجال السياسة والحكم، وفي الإدارة والاقتصاد وفي كل شيء آخر من شؤون الحياة العامة، القدرة على الانضباط والانتظام وعلى البذل والتضحية بدافع المناقبية الخيّرة والكرامة الإنسانية. لكل هذه الأسباب يرى أن «**القدرة الذاتية هي العدّة التي لا تدانيها عدّة أخرى، والملاذ الأمين في حالة التخلف والتضعضع التي نتردى فيها. .**». هكذا تصبح «القدرة الذاتية» السبيل الوحيد إلى نقل المجتمع العربي «**ليصبح مجتمعاً إبداعياً فيحقق بذلك وحدته القومية**»، تلك الوحدة التي تبدو في هذا الإطار «**ضرورة حياتية، لا لكونها الشرط لاكتمال الهوية القومية وازدهارها فحسب، بل لأنها أيضاً السبيل إلى تنظيم الموارد المختلفة، وتجنيد القوى المتفرقة. .**»، تلك الوحدة التي يعتقد أن من أهم الشروط التي تتطلبها «**خلق مناخ من الحرية في ميادين القول والفكر والاعتقاد والسلوك**».

لهذه الأسباب يستبعد أن تحصل أو تقوم الوحدة العربية اليوم، كما قامت في بعض العهود الماضية بقوة قاهرة، فحتى في تلك العهود لم تنجح القوة القاهرة إلا بقدر ما كان قد سبقها من استعداد شعبي وتهيؤ نفسي وعقلي.

حادي عشر: فلسطين

بدأ اهتمامه بالقضية الفلسطينية قبل النكبة وإعلان قيام إسرائيل عام ١٩٤٨. والقارئ لنتاجه الفكري يجد فلسطين لا تغيب عن خاطره، فهو يذكرها

ويذكّرنا بها في كلّ مناسبة، وينتهز كل فرصة لتنبيه العرب إلى خطر الصهيونية التي باتت تهددهم جميعاً وتسعى إلى السيطرة عليهم ونهب ثرواتهم وتبديد تراثهم.

عند صدور كتابه الأول حول المسألة الفلسطينية معنى النكبة أثار الكثير من الاهتمام والنقاش لما تضمّنه من حجج مقنعة وأسلوب رصين ومقاربات حوارية جديدة بعيدة عن لغة التخوين والاتهام والأحكام الجائرة والجاهزة واللغة الخطابية والعاطفية التي كانت سائدة إثر النكبة في ذلك الحين. وبُعَيْدَ العام ١٩٦٧ أصدر كتابه الثاني معنى النكبة مجدداً، فغاص بعمق في واقع الأمة وثقافتها ونفسيتها وقيمها وأساليبها وعلاقاتها وأوضاعها، وأوصله بحثه العقلاني إلى نتائج جديدة وهامة؛ أهمها أن تفوّق المجتمع الصهيوني في المعارك كان انعكاساً لتميز نظامه من نظام المجتمعات العربية. فالأول قائم على أسس الحضارة الحديثة، بينما تعيش المجتمعات العربية أوضاع القرون الوسطى وعقليتها، وتخدر نفسها بأحلام عن أمجاد الماضي، وتتنكر في الوقت ذاته للحياة الحديثة[٣٣].

فارق القوة بين المجتمعين يحدده الفارق الحضاري بينهما، فإن أراد العرب الانتصار، عليهم أن يخوضوا معركة بناء المحتوى الحضاري لكيانهم، إلى جانب معركة الحفاظ على النفس وإقامة الكيان[٣٤]، ولأن المعركة الأولى موجّهة ضدّ التخلّف الحضاري بجميع أوجهه، لذلك كانت هي الأهم والأكثر خطورة، ولا يتحقق انتقال المجتمع العربي من حالة تخلّفه الراهنة إلى الوضع الحضاري المنشود إلا عندما يتمّ اعتناق نظرة إلى الأمور تعتبر أن عالم الأمس لا يمكنه أن يفي بحاجات اليوم، وأن نوعية المستقبل تعتمد على ما يبذل من عزيمة وتضحية وليس على عوامل خارجية، وتقدم بالتالي الواجب على الحقوق، وتمنع تبديد التراث، وتشجع الادخار، وتتبنى العقلية العلمية في بناء المجتمع[٣٥]. إنه يقول بكل بساطة بأن «المستقبل هو ملك الذين يستحقونه»[٣٦].

ولشدّة إيمانه بأهمية القضية الفلسطينية في الحياة العربية لم يتوان عن الدعوة

---

(٣٣) زريق، معنى النكبة، ص ٤٢.

(٣٤) زريق، هذا العصر المتفجر: نظرات في واقعنا وواقع الإنسانية، ص ٧٩.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٤٨ ـ ١٥٠.

(٣٦) زريق، نحن والمستقبل، ص ٢٣٩.

إلى إنشاء علم خاص بها، دعاه «علم النكبة»، فقد كان يرى أن أصواتاً كثيرة ارتفعت لمناصرة قضية فلسطين باستثناء صوت العلم. ويردّ على الذين يقولون إن القضية ليست قضية علم بل قضية حق بالقول: «إن مجرد الحق في عالم اليوم لا يكفي، ولا يغني صاحبه كثيراً أو قليلاً، إذا لم تدعمه قوة أو يسنده سلطان. وإذا كانت القوة على أنواع، قوة السلاح وقوة الهدف والعمل وقوة المال وقوة العقل، فعدّونا لم يهمل هذه القوة، بل جعلها منذ نشأته دعامة من أرسخ دعائم عمله، فصاغ الباطل بقالب الحق، واستثار الضمير العالمي، واستغل نفوذه السياسي والمالي، ودعم هذا كلّه بالوسائل المختلفة التي جهّزها لأغراضه. ومن هذه الوسائل تلك المؤسسات والمعاهد التي استنفر لها العقول المجندة والأدمغة المروّضة لتأخذ كل ناحية من نواحي القضية بالدراسة الاختصاصية والمعالجة المستقصاة».

نراه يتساءل «كم من باحث يمكن أن ندعوه حقاً اختصاصياً في القضية الفلسطينية، يتابع ما يجري في إسرائيل، وما يصنع الصهيونيون فيها وخارجها من مخططات ومشروعات؟ وأين هي المعاهد والمراكز التي أنشأناها، والتي نجد فيها الوثائق والمعلومات التي تضم الباحثين والمنقبين المنصرفين إلى وضع الدراسات وتنوير الأذهان؟ أليس من العيب أن توفر لشبابنا الوسائل العلمية للتخصص في الطب والعمارة أو . . . ولا نشعر بضرورة هذا الاختصاص في قضية تمس جوهر وجودنا ومصيرنا كأمة؟ لقد غدا العلم «أساس القوة الحقيقية ومصدر القدرة على البقاء والتقدم والازدهار، وتسابق الأمم في ميادين العلم هي اليوم الظاهرة البارزة في التطور الحضاري، وآن لنا أن نجاري الزمن ونبدأ بإنشاء علم النكبة».

لذلك عمد مع علماء من زملائه إلى إنشاء «مؤسسة الدراسات الفلسطينية»، وكعادته كان المحرك الرئيسي لها، ولم يكن غريباً أن يتولى رئاسة مجلس أمناء المؤسسة منذ إنشائها عام ١٩٦٣ حتى العام ١٩٨٤ حينما اختير رئيس شرف للمجلس. وهو بهذه الصفة، يعتبر أحد أبوي البحث الفلسطيني، يشاركه في اللقب والجهد مؤسس مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية المرحوم فايز الصايغ مطلع عام ١٩٦٥. وقد كان من نتاج هاتين المؤسستين الكبيرتين خدمات بحثية وعلمية ساهمت في كشف الكثير من الحقائق ونشر المطالب المحقة في الوطن العربي وخارجه والمتعلقة بهذه القضية، سواء على صعيد

وسائل الإعلام والجامعات ومراكز الثقافة أو بين صانعي القرار وأجهزة الحكم. وكان من أبرز إنجازات المؤسسة التي أشرف عليها زريق إصدار «**الموسوعة الفلسطينية**» التي شارك في وضع ومراجعة الكثير من دراساتها المعدة للنشر.

ثاني عشر: العبور إلى الديمقراطية

كان إيمانه بأن القضية الفلسطينية هي قضية قومية راسخاً، ولأنها كذلك فهي ترتبط بأوضاع المجتمع العربي الكبير الذي تتحرك فيه. وبالتالي فإن إصلاح هذا المجتمع يعتبر شرطاً أساسياً لانتصار هذه القضية والتغلب على العدو الإسرائيلي. لم يكن يتردد في توصيف الواقع العربي بالتخلف بكل أنواعه، ولم يكن يجد غضاضة في الاعتراف بأننا «أمة متخلّفة» لأن معظمنا لا يجابه حقيقة الواقع وحقائق المستقبل بوضوح وجهد كاف[٣٧]. غير أن دعوته إلى الإسراع في تحقيق الإصلاحات واللحاق بالركب الحضاري لم تكن دعوة إلى طريق انقلابي مستتر، بل كان بوضوح لا لبس فيه من المؤمنين بوجوب الأخذ بالطريق والنظام الديمقراطي الذي راح «**يعمّ العالم جميعاً. فهناك اليوم ظاهرتان للحياة المعاصرة، الأولى هي أن هذا العصر قد غدا عصر الشعوب التي تحرك التاريخ بتطلعاتها ورغباتها في تحسين أوضاعها، والثانية هي أن العالم لم يعد منقسماً إلى شعوب ومناطق منعزلة، بل أصبح مكوّناً من شعوب متفاعلة وأرجاء متواصلة**». ونراه يخاطب الحكام العرب مؤكداً بأن المنهج الإصلاحي يجب أن يقوم على إيمان حقيقي لا مصطنع بالشعب، وعلى نشر الديمقراطية في صفوفه، وعلى اقتناع بأن المزيد من الديمقراطية لا يضعف الحكم بل يقوّيه[٣٨].

كان يرى أهمية كبرى للحرية الفكرية، وحرية إبداء الرأي، ومناقشة أحكام الآخرين «**مهما عظُمت سلطتهم وعلت مناصبهم**. . » بل إنه وجد أن «**من عوامل الهزيمة الفجوة بين الحكام والمحكومين، وإبعاد الشعب عن الميدان بحصر السلطة، وكبت الحرية، وسلب المسؤولية، ومنع المشاركة**. . »[٣٩].

---

(٣٧) من حديث له في جريدة السفير، ١٩/ ٥/ ١٩٩٤.

(٣٨) زريق، **الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق**، ج ٤، ص ١٧٩٥ و١٧٩٧ ـ ١٨٢٨.

(٣٩) قسطنطين زريق، **معنى النكبة مجدداً** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٧)، ص ٦٨.

مع ذلك يعتبر أن الديمقراطية لا تنحصر في دوائر الحكم وميادين السياسة فحسب وإنما هي نوع من التفكير والسلوك يقتضي لنجاحه أن يتخلل نسيج حياة المجتمع بالكامل. إنها تنبت في البيت، وتنمو في المدرسة وفي الحقل والمصنع وفي المسجد والكنيسة وفي النادي والملعب، وفي سواها من خلايا المجتمع. . «**فكيف لأي مواطن أن يقوم بواجباته الوطنية قياماً صحيحاً إذا هو لم يختبر الحرية والديمقراطية ولم يتمرس بهما في المؤسسات التي ينتمي إليها. فالديمقراطية أسلوب في الحياة كلما تغلغل وانتشر في صفوف الشعب صار معيناً أكبر وسنداً أقوى للحكم الديمقراطي**»[40].

كان يعرف أن للتخلف أسباباً داخلية وأخرى خارجية، وكان يقول إن «**العيب ليس في التخلف ذاته، فلقد حصل لشعوب أخرى، بل لجميع الشعوب خلال مراحل تاريخها. . وإنما العيب في القصور عن وعي حقيقته وتقدير خطورته وفي القعود عن مكافحته**». من هنا كانت في مقدمة همومه كمفكر عربي إعادة الثقة إلى النفوس، وتحويل العجز إلى قدرة ذاتية تعتمد على المعرفة: معرفة الغير ومعرفة الذات[41]، والتحول الإنساني الجذري المطلوب في الأمم المتخلفة هو تحول مزدوج: عقلي وخلقي. والمرحلة الخطيرة التي تمر بها أمتنا تتطلّب إنساناً عربياً من نوع جديد وتغيراً في العقليات، ولا يتمّ هذا التغير عنده إلا أن يأتي جذرياً ونوعياً، وأن يهتدي بالعقل ويخضع لأحكامه، وأن يقيم وزناً للعمل، وأن يجري في جو مشبع بالحرية، وأن يهدف إلى إنشاء مجتمع يتميز بالعقلانية والفضيلة معاً.

كتب قسطنطين زريق للأمة ولشبابها ولمستقبلها، وتحوّل الكثير من أفكاره إلى طاقة متحركة وفعّالة، كسرت الصمت عن قضايا، وأطلقت حواراً عقلانياً حولها. خرجت كلماته من بين الكتب ومن قاعات المحاضرات في الجامعة، ليتسع إشعاعها وتزداد نقاوتها وصفاؤها في عقول جيل كامل، مثبتاً أن للأفكار أجنحة تطير إلى جميع الجهات.

---

(٤٠) زريق، الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق، ص ١٨٠١ ـ ١٨١١.
(٤١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٤٢١/٩.